افتتاحيّةُ العددِ الثاني بعد المئة
مجلّة "الدراسات الأدبيّة"

بقلم رئيسةِ التحرير أ.د. دلال عبّاس

ذكرنا في العددِ الأوّلِ بعد المئةِ الذي افتتَحْنا به الدورةَ الجديدةَ لمجلّةِ "الدراساتِ الأدبيّةِ"، أنّ مِنبرَ اللغةِ الفارسيّةِ في الجامعةِ اللبنانيّة، قد أصدرَ في العام ١٩٥٩م هذه المجلّةَ ليتعارفَ علماءُ اللغتين العربيّةِ والفارسيّةِ ويتبادلوا المعلوماتِ ويتثاقفوا؛ وقد بنتِ المجلّةُ جسرَ تواصلٍ جديدٍ بين العرب والإيرانيّين بديلًا من ذاك الذي تقطّعتْ أوصالُه في عصور الانحطاطِ المتماديةِ، التي أعقبتِ انهيارَ الأمبراطوريّةِ العبّاسيّة وتشظّيها، وسقوطَ غرناطةَ آخرِ معاقل المسلمين في الأندلس؛ وقد فتحتِ المجلّةُ الأبوابَ وشرّعتْها أمام الباحثين لدراسةِ التأثّرِ والتأثيرِ المتبادَلَيْنِ بين اللغةِ العربيّةِ وآدابِها واللغةِ الفارسيّةِ وآدابِها...

ما سهونا عن قوله في افتتاحيّةِ العددِ الأوّلِ، هو أنَّ أستاذَنا الدكتور أحمد لواساني، هو الذي تولّى رئاسةَ تحريرِ المجلّةِ في أواخر العام ١٩٦٧م بعد عودةِ الدكتور محمّد محمّدي إلى إيران، حين ساءتِ العَلاقاتُ السياسيّةُ والدبلوماسيّةُ بين لبنانَ وشاهِ إيرانَ حليفِ إسرائيلَ، الذي أمدّها بالنفطِ مجّانًا في حرب الأيّامِ الستّة؛ وأنّ معظمَ مقالاتِ الأعدادِ العائدةِ إلى المرحلةِ الأولى من عمرِ المجلّةِ قد ترجمها الدكتور لواساني من العربيّة بالفارسيّة، أو من الفارسيّة بالعربيّة، لأنّ المجلّةَ في تلك الآونةِ كانت -أحيانًا- تنشرُ المقالةَ الواحدَةَ باللغتين. ونحن إذ نطأُ اليومَ عتبةَ المرحلةِ الثالثةِ من حياةِ المجلّةِ، مستلهمين خطى أساتذتِنا الأجلّاءِ الراحلين، يحدونا الأملُ أنْ نتمكّنَ من إضافةِ لَبِنَةٍ إلى عِمارةِ الحضارةِ الإنسانيّةِ الجديدةِ، التي سيُعيدُ الإيرانيّون والعربُ بناءها معًا، كما فعلوا حين بدؤوا منذ أربعةَ عَشَرَ قرنًا بناءَ حضارةٍ في الشرقِ مكتملَةِ العناصرِ، وصلَتْ إلى الأوجِ في العصورِ العبّاسيّةِ، وشعّت من طريق الأندلسِ على الغربِ الذي كان لا يزال غارقًا في غياهبِ الظلماتِ؛ لكنّ التشظّي الذي أصاب الإمبراطوريّةَ الإسلاميّة حين ركنَ حكّامُها إلى الدَّعةِ، فغلَبتْهم جحافلُ

المغولِ والصليبيّين، قد باعدَ بين الشعوبِ التي تآخت بعد الإسلامِ وتآزرتْ، وبنتْ معًا صروحَ الحضارةِ المجيدة، ففَتَرتِ العَلاقاتُ في ما بينها، وانقطعتِ تدريجيًّا الصلاتُ والعلائق والأواصرُ الحضاريّةُ والثقافيّةُ التي كانت توحّدُها، وعمّ الجهلُ والأمّيّةُ أنحاء الشرقِ بعد أن غَرَبَتْ شمسُه لتطلُعَ من جهةِ الغرب.

اليوم في هذه المرحلةِ من تاريخنا التي تشهدُ مخاضًا شاملًا، نحن جميعًا معنيّون بإعادةِ هذه الصلاتِ الثقافيّةِ بين العربِ والإيرانيّين، وبينهم وبين الشعوب الأخرى التي تأثّروا بها وأثّروا فيها ثقافيًّا وحضاريًّا، وتصحيحِ سوء الفهمِ العالقِ في الأذهان، والموروثِ من عصور الانحطاط؛ بأنْ نتناولَ بالبحثِ المواضيعَ المشتركةَ بين الثقافتَين واللغتَين والأدبَين، ونقتفيَ أثرَ التفاعل المستمرّ في ما بينها... ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الدرسات كلّما تقدّمت وتفرّعت وتشعّبت، تتجلّى من خلالها مواضيعُ جديدةٌ، لا تزال محاطةً بهالةٍ من الغموضِ والإبهامِ، ولا سبيلَ إلى إجلائها إلّا من طريقِ هذا النوعِ من الدراسات المشتركة...

إنّ العَلاقةَ بين العربِ والإيرانيّينَ تعودُ إلى ما قبل الإسلام، فقد تجاورَ الفرسُ والعربُ منذ القِدَم، وربطَتْ بينهُم أواصرُ الودّ وحسنِ الجوار قبلَ الدينِ الإسلاميّ الحنيف وبعدَه، يشهدُ على ذلك ما ورد في الشعر الجاهليّ من إشارات إلى ذلك التقاربِ، ومن ألفاظٍ فارسيّةٍ معرّبة؛ وهذه الألفاظُ الفارسيّةُ الأصلِ نجدها في النصّ القرآنيّ نفسِه... وقد ذكَر المؤرّخون قصّةَ سيف بنِ ذي يَزن ملك اليمن، ونصرةَ شابور الثاني (ذي الأكتاف ٢٧٩ - ٣٠١ م) له في زمن كسرى أنوشروان، في ردّ الأحباش عن اليمن؛ وذكروا أنّ بعض هؤلاء الجند الذين نصروا سيفَ بنَ ذي يَزن، ظلّوا في اليمن، وقد سُمّوا "الأبناء"، وكانوا من أوائل الذين أسلموا في اليمن، وشاركوا في فتح إيران. ومن اللافت أن يكونَ أحدُ كبار قرّاء القرآن في ما بعد عبدُ الله بنُ كثير من أبناء هؤلاء، أخذ أصولَ علمِ القراءة من مجاهد عن ابن عباس عن عليّ عليه السلام، وكانت وفاتُه سنة ١٢٠هـ. نذكر كذلك إمارةَ الحِيرةِ التي كانت خاضعةً للنفوذِ الفارسيّ سياسيًّا، وكانت مركزَ تبادلِ تجاريّ وحضاريّ بين العرب والفرس، وقد أُتيحَ لبعض العربِ في الجاهليّةِ من خطباءَ وشعراءَ وشيوخِ قبائلَ أنْ يتردّدوا

على بلاط الحِيرةِ، وكانتِ الفارسيّةُ وتقاليدُ الفرسِ منتشرةً فيها، فأخذوا من ألفاظها وعاداتِها، وتعلّموا قَصَصَها وأخبارَها... وسمّى البعضُ نفسَه أو أولاده بأسماء فارسيّة عرّبوها: فلقيطُ بنُ زُرارة الجاهليّ سمّى ابنته "دختنوس" باسم ابنةِ كسرى "دُخت نوش"، وسمّى قيسُ بنُ مسعود ابنه "بُسطام" باسم أحد ملوك الفرس "أوستام"، وكان النُعمانُ بن المنذر يُسمّى "أبوقابوس"، وقابوس معرّب "كاووس" الفارسيّة، وذكره النابغة بهذا الاسم في شعره، وقد عمل بعضُ العرب في بلاط الأكاسرة، منهم لقيط بن يعمر الأياديّ، وعديّ بن زيد العباديّ، اللذان كانا يقرآن الفارسيّة ويترجمانها بالعربيّة، وقد جاء في شعر عديّ بن زيد العباديّ الكثير من الألفاظ الفارسيّة . كما أنّ بعض شعراء البوادي كانوا يقصدون الحيرة والمدائن وبلاد فارس ومنهم الأعشى، وهو القائل "وطال في العجم ترحالي وتَسْياري"، وقد اقتبس من ألفاظهم الكثير ممّا ضمّنَه شعرَه.

لقد أخذتِ العَلاقةُ بين العربِ والفرس تتعمّقُ تدريجيًّا بعد أنْ تقدّمَ المسلمون للمرَّة الأولى في عهد الخليفة الثاني إلى العراق وإيران، وأسلَمَ من أسلَم من الفرسِ طوْعًا، وانضمّوا إلى الجيش الإسلاميّ، وأقرَّ المسلمون السكّانَ في أرضِهم وأمّنوهم على أنفسِهم وأموالِهم، ثمَّ ما كان من هجرة العربِ إلى هذه المناطق واستقرارِهم فيها. كلُّ ذلك أدّى إلى أن يمتزجَ السكّان الأصليّون والوافِدون، وأن يُقاربَ بعضُهم بعضًا، وأنْ يُصهِرَ من أسلمَ منهم إلى من وفدَ عليهم، وأنْ يكون هنالكَ هذا الاختلاط الذي كان من ثمراته جيلٌ جديدٌ لفّتهُ الحياةُ الإسلاميّةُ الجديدةُ بما كان من طوابعها وسِماتها.

إنّ حركة الفتوحِ الإسلاميّة في إيران جعلتِ العربَ يختلطون بالدَم الآريّ، ويستمعون إلى لغةٍ تخالفُ لغتَهُم، هي اللغةُ البهلويّةُ إحدى أصول الأسرةِ الهنديّة - الأوربيّة، وهي تُتيحُ لهذهِ الأرضِ واللغةِ والدمِ لونًا من المخالفَة القويّةِ، فتستخدِمُ الأسرى وتُحالف الموالي وتتزوّج من السبي وتستولده، وهي تسوسُ ما صار من ملكِ كسرى ديارًا إسلاميّةً، فتهاجرُ إليها وتستقرُّ فيها، وتُفسِحُ مجالاً للاختلاطِ ما بين لغتِها الأمّ ولغةِ القومِ فتتبادلان الصلاتِ والتأثيرَ والتأثّر، وتنشأُ من هذا التزواج بين

اللغتيـن لغةٌ يُمكنُنا أنْ نسـمّيَها لغـةَ التفاهم، يتكلّمها عامّةُ النـاس، إلى أن تصيرَ بعدَ قـرونٍ مـن الهِجـرةِ لغةَ إيـرانَ الرسـميّةَ، ويضطـرّ أهلُهـا أن يكتبوها بالحـروف العربيّة...

لقـد كانـتِ الترجمـةُ مـن الفارسـيّة بالعربيّة أوّلًا، ثـمّ من العربيّـةِ بالفارسـيّةِ أهمّ طرق التثاقُف والتأثيرالمتبادل بيـن العـرب والإيرانيّين. العبّاسـيّون هم الذين سـخّروا كلَّ إمكانياتهـم وقدراتهم في اسـتِقطابِ الثقافاتِ المختلفةِ اليونانيّةِ والهنديّةِ والفارسـيّةِ؛ وممّـا لا شـكَّ فيـه أنّ أمـواجَ الترجمـةِ مـن الفارسـيّة، كانـت الجسـرَ الـذي عَبَـرت مـن خلالـه ثقافـاتُ الأُمـم المختلفةِ التـي انصهرتْ فـي الدولةِ الإسـلاميّة، وأغنَـتِ الثقافةَ الإسـلاميّة؛ وكانتْ من أبرزِ العواملِ التي أسـهمتْ في تسـريع النهضة الثقافيّة والعلميّة لذلـك العصـر. لقد كانتِ الكتـبُ التي موضوعُها السياسـةُ الملوكيّةُ عنـد الفرس أولى الكتـبِ التـي تُرجِمَـتْ من الآثـارِ الأجنبيّةِ فـي الأدبِ والسياسـة؛ وأوّلُ المترجمين في عهـد أبـي جعفـر المنصـور كان ابـنَ المُـقفّع (روزبـه بـنَ داذويه)، الـذي ترجـم بالعربيّة منطـق أرسـطو، الـذي كان منقـولاً مـن قبـلُ إلـى الفارسـيّة، وكليلـة ودُمنـة الـذي كان منقـولاً إلـى الفارسـيّة البهلويّة عـن الهنديّة (ترجمه سـنة ١٣٣هـ/٧٤٩م)، وترجم كتبًا عـدّةً أخرى، وقـد ألّـف بالعربيّة عددًا مـن الكتب والرسـائل، تبدو فيها عناصـر الثقافة الفارسـيّة: وهـي الأدب الصغيـر والأدب الكبيـر، واليتيمة في الرسـائل...

إنّ مـا جـاء مـن الحِكَم و الأمثال الفارسـيّة في الكتـب التي تُرجمـت بالعربيّة ومنها: مواعـظ بزرجمهر، وسـيَر الملوك والتـاج، والنُّظُم، قد أثّر فـي الأدب العربيّ شـعرِه ونثرِه، كمـا أنّ الأدبـاء واللغوييـن قـد اهتمـوا بـ كليلة ودمنـة وهذا أمـرٌ معروف لدى الدارسـين من العـرب والإيرانيّين.

فـي هذا السـياق لا بدّ لنا مـن ذكر الدور الذي أدّته مدرسـةُ جنديسـابور وعلماؤها في تلـك المرحلة التاريخيّة، وقد امتزجت في جنديسـابور الثقافـات المتنوّعة من يونانيّة وسـريانيّة وفارسـيّة وهنديّة، وبقيتِ السـريانيّة لغةَ التدريس فيها، واشـتُهرت بالفلسفة والفلـك والطّـبّ، ومـن المرجّـح أنّ اللّغة العربيّة كانـت معروفةً في جنديسـابور قبلَ أن يفتـحَ العـربُ المدينةَ لقربِها مـن الحِيرةِ المدينة العربيّة المشـهورة.

فـي كلّ الأحـوال كان الأطبـاءُ فـي هـذه المدرسـة يسـتخدمون فـي العصـر العبّاسـيّ

اللغتين العربيّة والفارسيّة، كما يشهد على ذلك ما يرويه ابنُ أبي أُصيبعة عن جورجيوس رئيسِ أطبّاء جنديسابور عندما التقى بالخليفة المأمون وخاطبه باللّغة العربيّة وباللّغة الفارسيَّة...

أمّا الترجمة من العربيّة بالفارسيّة فقد بدأت رسميًّا في القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ، في أثناء حكم السامانيين (٢٦١ - ٣٨٤ هـ) إحدى الحكومات التي استقلَّت عن العبّاسيّين عمليًّا، وظلّت محافِظةً على سلطة الخليفة العبّاسيّ معنويًّا، وجعلتِ الفارسيّةَ لغةَ الدولةِ الرسميّةَ بدلًا من العربيّة.

وكان أوّل كتابٍ تُرجم من العربيّة بالفارسيّة الدريّة في العصر السامانيّ، هو كتابُ كليلة ودمنة، الذي كان قد نُقل من اللّغة الهنديّة إلى اللّغة البهلويّة، ومنها إلى السريانيّة، ثمَّ إلى العربيّة، ومن العربيّة تُرجِمَ بالفارسيّة الدَّريّة؛ كما أنّ كتبَ الصيدلة والطّبّ والفقه المكتوبة أساسًا بالعربيّة تُرجمت بالفارسيّة ليفهمها العامّة.

هذا غيضٌ من فيضِ التبادل الثقافيّ والمعرفيّ من الفارسيَّة بالعربيَّة ومن العربيَّة بالفارسيَّة؛ ومن المهم أنْ نشيرَإلى أنّ اللّغةَ العربيّةَ ظلّتِ اللّغةَ العلميّة في الدولة السامانيّة ومن ثمَّ في ظلّ الحكومات التي أعقبتها، أي أنّ الكتابة بالفارسيَّةِ الدَّرِيَّةِ المكتوبةِ بالخطّ العربيّ منذ العصر السامانيّ وما بعده، لم تُلغِ دورَ العربيّة أو تقضي عليها، لأنّها لغةُ الدين، وظلَّ الأدباء والمؤلّفون والشعراء والفلاسفة يجيدون اللغتين، منهم من يكتب بهما معًا كابن سينا والبيرونيّ، ومنهم من يكتب بالعربيّة وهو يجيد الفارسيّة كالثعالبيَّ، وبديعِ الزمان الهمذانيّ، وأبي الحسن العامريّ، ومنهم من يكتب بالفارسيّةِ وهو يُجيد العربيّةَ كعمر الخيّام النيسابوريّ؛ وظلَّتِ العربيّةُ في إيرانَ لغةَ الثقافةِ العلميّةِ والدينيّةِ والأدبيّة. وقد توكّأتِ الحركةُ الأدبيّةُ على تراثِ العربيّةِ النثريّ والشعريّ، كما يتبيّن من مواضيعِ الشعرِ ومن لغته؛ وأمّا في النحو والصرف واللغة والبلاغة والشعر والتاريخ فإنّ خدماتِ الإيرانيّينَ أوضحُ من أنْ نبيّنَها. لقد خدموا العربيّةَ أكثر ممّا خدمها العربُ أنفسُهم لأنّها لغةُ القرآن ولغةُ الإسلام .

إنّ عمليّةَ الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة استؤنفت منذ أكثر من ثلاثةِ أرباعِ القرن،

وأبدت اهتمامًا بالأدب الفارسيّ القديم والمعاصر بعد إنشاء أقسام مستقلّة أو فرعيّة في الجامعات العربيّة، وقد نُقلت كتب ثقافيّة وتاريخيّة وأدبيّة عديدة من الفارسيّة إلى العربيّة قبل الثورة الإسلاميّةِ، أمّا بعد الثورة فقد تسارعتْ وتيرة الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة ومن العربيّة بالفارسيّة؛ ويتّضحُ اهتمامُ الإيرانيين بالعربيّة بعد الثورة الإسلاميّة من خلال مناهج التدريسِ المعمول بها بدءًا بالمرحلة المتوسّطة فالثانويّة فالجامعيّة، ويعمل الآن آلاف الطلبة في مختلِف الجامعات الإيرانيّة على نيل الشهادات الجامعيّة في اللغة العربيّة وآدابها. ومفاجئ الاطّلاع على حجم الموضوعات التي تطرّق إليها الطلاب الدارسون للأدب العربيّ في مرحلة الدكتوراه.

أمّا الكتب العربيّةُ المترجمة فيصعُب إحصاؤها: لقد تُرجمت الكتبُ الدينيّةُ والتاريخيّةُ واللغويّةُ والبلاغيّةُ والأدبيّةُ القديمةُ والحديثة، والرواياتُ ودواوينُ الشعراءِ القدماءِ والمعاصرين، فضلاً عن ترجمةِ ما صدر من دراسات الغربيّين عن الأدبَيْن الفارسيّ والعربيّ، وما كتبه المستشرقون الغربيّون حول تاريخ هذا الأدب.

من ناحية أخرى الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة اقتصرت في المرحلة الأولى بعد انتصار الثورة على ترجمة كتب أو مقالات قادة الثورة، ثمّ بدأت تزيد بالتدرّج، وقد بلغتِ اليومَ مرحلةً متقدّمةً، ولكنّها لا تزال قاصرةً عنِ اللحاق بكلّ هذا التقدّم العلميّ الذي يحدث في إيران، ويمكن أنْ يستفيدَ منه العرب.

هذه المجلّة كما ذكرنا في الدعوة إلى الاستكتاب تنشر الأبحاثَ التي تدرس:

- التأثّر والتأثير المتبادَلَين بين اللغة العربيّةِ وآدابِها واللغةِ الفارسيّةِ وآدابِها، وحدودِ تعاونِهما وتلاقحِهما قديمًا وحديثًا، والآثار الأدبيّة والفكريّة والفنيّة التي كانت نتيجة ذلك التعاون والتلاقح في كلٍّ منهما.
- تأثير اللغتين العربيّةِ والفارسيّةِ والأدبين العربيّ والفارسيّ أو أحدِهما في الآداب العالميّة.
- فضلًا عن تخصيص قسمٍ وافٍ من كلّ عدد لدراسة أديب كَتَبَ بإحدى اللغتين وتأثّر بالأخرى أو أثّر فيها، وأفسحنا مجالًا في هذا العدد لنشر أبحاثٍ عن الشاعر <نظامي الكنجوي>.

- إعادةُ نشرِ مقالةٍ مهمّةٍ أو اثنتين من مقالات الأساتذة الراحلين، المنشورةِ في الأعداد التي صدرت في الستينيّات من القرن العشرين الميلاديّ.

- قراءة نقديّة لأحد الكتب الصادرة حديثًا، التي تتناول أحدَ الموضوعاتِ اللغويّة أو الأدبيّةِ أو الحضاريّةِ ذاتِ الصلة بالموضوعات الآنفة الذكر.

- تعريفٌ لا يتجاوز الصفحتين بأحدِ الكتبِ الجديدة التي تتناول ما له صلة بالموضوعات المذكورةِ أعلاه.

وصلتنا لهذا العدد مقالاتٌ ذاتُ صلةٍ بأهداف المجّلة فنشرناها بعد موافقة الهيئة العلميّة، وأخرى لا تربطُها أدنى عَلاقةٍ بموضوع "التأثّر والتأثير المتبادَلَيْن ..."، الذي هو الركيزةُ التي تُبنى عليها عِمارةُ المجلّة، فلم ننشرها؛ وللأسف لم يصلْنا أيُّ مقالٍ عنِ النظاميّ، لذلك نشرنا في هذا العدد مقالةً قديمةً عن حياته وآثاره -بهدف تعريفه للأدباء والباحثين العرب- كنّا قد نشرناها في المجلّةِ نفسِها في العام ٢٠٠٤.

نذكّر أنّ لغاتِ المجلّة هي: العربيّة، الفارسيّة، الفرنسيّة، الإنجليزيّة.